أطفالنا و مشهد العنف

حقـــــائق وأرقـــــام

تقرير اليونسيف عام ٢٠٠٥ عن أطفال العراق

جاء في تقرير اليونسيف لعام ٢٠٠٥ ما يلي : ان حقيقة الوضع في العراق فرضت على الأطفال ان يعيشوا اسرى ووضع متقلب لا يمكن التنبؤ به . كما كرس عزلتهم وافتقادهم إلى ابسط حقوقهم الانسانية .

ونقل التقرير عن ممثل اليونسيف بالعراق روجرت رايت قوله " رغم استمرار البرامج الموجهة للأطفال التي يصل تمويلها إلى نحو مائة مليون دولار سنويا في شتى انحاء العراق منذ عام ٢٠٠٣ التي تنفذها الحكومة العراقية بدعم من الامم المتحدة . إلا أن هناك تباينا مؤسفا في مستويات التنفيذ وتاثيراته الايجابية وقال: ان الجهود اللازمة لسد حاجة الأطفال، ولا سيما في المناطق الاكثر حرمانا في محافظات الجنوب لا تتناسب مع تلك الامكانيات المتاحة . كما ان تفاقم حالة انعدام الامن والاستقرار بسبب القتال الدائر هناك، يشكل تحديا انسانيا كبيرا يواجه أطفال العراق ".

اما التعليم : فنسبة الالتحاق بالتعليم الاولي الاساسي في العراق تبلغ ٨٦٪ الا ان الاخفاق يكمن في تفاوت معدلات الالتحاق في البلاد . كما تشير الاحصاءات الحالية إلى ان نسبة ٢١٪ من الفتيات في سن الدراسة معظمهن في المناطق الريفية لا يذهبن إلى المدارس بسبب الافتقار للدعم الكافي من قبل المجتمع المحلي. ان الوضع الراهن في العراق يحرم الطفل من حرية التفكير . وكذا يكرس حرمانه من حقه في اللقاء مع اقرانه وسط مناخ امن لا تهدده المخاطر. في ١٢ ايار ٢٠٠٥ نشر تقرير صادر عن وزارة التخطيط والتعاون الانمائي العراقية مع برنامج الامم المتحدة الانمائي اوضاع مأساوية يعيشها الطفل العراقي. ١٨٪ من الأطفال العراقين يعانون من سوء التغذية . ٨٪ من سوء التغذية الحاد ٢٣٪ من سوء تغذية مزمن : وجاء في التقرير مايلي : يقدر عدد الأطفال الايتام في العراق بحوالي ٤-٥ ملايين طفل و ٩٠٠ الف معوق . واكثرمن مليون ونصف المليون ارملة . اضافة إلى مئات الالاف من المطلقات واغلب هؤلاء النساء يقمن بأعالة نحو ٧ ملايين طفل ويعشن في مستوى متردد دون الحد الادنى للمستوى المعيشي . ويعانين من امراض عديدة مزمنة وخطيرة. نتيجة الحروب المستمرة وعدد الايتام في تزايد نتيجة الاعمال الارهابية التي تقوم بها القوى الارهابية غالبا ما يذهب ضحيتها الوالدان وهم في طريقهم للعمل. بسبب سياسات النظام الصدامي العسكرية المستمرة كان العراق ينتهي من حرب ليدخل اخرى، و نتيجة الوضع الامني غير المستقر اخذ يتغلب مظهر عسكرة المجتمع وهذا اثر في الأطفال اذ يحس الطفل ان رجولته تتكامل بتقلد الزي العسكري وحمل السلاح والتعلم على استعماله وهو في سن مبكر. لابل منذ ان يعي الطفل على الحياة فهو يفقه اللعب الحربية وهي الدبابات والمصفحات وانواع البنادق والمسدسات وهو يقلد ما يشاهده في التلفزيون، من مظاهر الحرب والارهاب والعنف. هذا ينطبق على الذكور. اما الاناث فيزرع في اذهانهن الخوف والحذر من الاختطاف والابتزاز والاغتصاب والقتل والخ. مما ادى إلى تدن واضح في نسب التسجيل بالمراحل الاولية وإلى انطواء وعزلة الطفلة في البيت وفي رأسها هاجس الخوف والرعب مما ينعكس بشكل سلبي على نفسية الأطفال من الجنسين.. علما ان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٠٧/٥٢ الصادر في ١٢ كانون الاول ١٩٩٧ يؤكد على حماية الأطفال المتأثرين بالنزاع المسلح. لذا نطالب كل الجهات المعنية بالنزاع والارهاب حماية الطفل العراقي واحترام حقوقه وتقديم مساعدات صحية للأطفال الضحايا، وثانيا تقديم حماية ومعاملة خاصة لهم واعادة تأهيلهم. كما نطالب الاطباء والمستشفيات العالمية ان تخصص بعضا من مشاريعها الصحية لوضع برامج لمعالجة هذه الفئة الكبيرة من أطفال العراق. وعلى الدولة العراقية تكثيف برامج خاصة للأطفال اليتامى والمشردين واحتواؤهم في ملاجئ خاصة والا فإن مصيرهم سيكون اما القتل من قبل الارهابين او استغلالهم من قبلهم وفي النهاية سيكونون لقمة رخيصة لتنفيذ مشاريع الارهاب والاجرام ليس في العراق فقط بل خارج العراق ايضا.

أمـــــــراض نفسية مختلفـــــة و العنـــف واحـــــد

حالة خاصة

تقول الطفلة ليلى (١٠) سنوات: اكره الصواريخ لانها تسبب لنا الظلام وانا أخاف منها حين اسمع صوت تفجير أو صاروخ أقف مكاني واشعر بأني سأموت في هذه الدقيقة وحين تناديني امي لا أجيبها لاني اعتقد ان الصواريخ تأتي على اصوات الناس وتقتلهم، وتؤكد هذه الحالة والدتها (٤٦) وهي مدرسة لغة انكليزية قائلة: ليلى تخشى الظلام حتى لو حدث بدون اصوات دوي القذائف لقد صاحبتها هذه الحالة بعد سقوط صاروخ على دار جيراننا وادى الى مقتل صديقتها (ميسون) وهي زميلتها في المدرسة ايضا، بعض الاحيان تبكي وتصرخ من دون سبب لقد عرضتها على اكثر من طبيب نفساني وقد اكد لي الاطباء ان العلاج له علاقة بتغيير المكان والابتعاد نهائيا عن أي مؤثرات عنيفة، فمن اين احصل على مثل هذا العلاج.

التشخيص: الدكتور شعلان جودة مكتب المستشار الوطني للصحة النفسية وزارة الصحة: يمكن ان يكون خوف الاطفال والظلام امرا طبيعيا كما يمكن ان يكون غير طبيعي يرتبط ذلك بالتعويد وخوف الطفل من الظلام يكون عاماً لارتباط الظلام في ذهنه بالروايات والاساطير المخيفة المزعجة، واحيانا يرتبط الخوف بالحوادث والرعب والاصوات المدوية المرتبطة بأوقات الظلام.

يصاب كثير من الاطفال بدرجات مختلفة بنوع الخوف وهو الخوف من الموت وكثير من الاحيان يكون سببه من الكبار الذين يعيشون مع الطفل. يخاف احدهم الموت بشكل بارز وقد يكون سببه ان يموت للطفل قريب او رفيق له به صلة شديدة والسبب الرئيس لهذا ان موت القريب يهز في الطفل ثقته في بيئته التي يحتمي بها وينتمي اليها هزاً عنيفا فيعيش حالة الاضطراب ان كل واحد من حوله يمكن ان يموت كالوالد او الوالدة او الاخ.. او..

والسبب الاخر هو اهتزاز وضعف الثقة بالنفس لموت القريب حيث يصح ان يموت هو ايضا في أية لحظة.

السبب الثالث يخاف الاطفال الموت لان الموت ظاهرة غريبة غامضة ليس من السهل على الطفل ان يتصور نفسه في حالة الموت او فيما يحدث بعد الموت بجثته ناتج عن ما يأتيه والكبار من بكاء فردي وجماعياً يحيط بحالات الموت فخوف الاطفال من الموت ليس كله خوفا طبيعيا، وانما اغلبه مشتق من خوف الكبار وسلوكهم ازاءه.

عقدة المظلة

سمارة عمرها ٨ سنوات لعبتها المفضلة مظلة سوداء صغيرة لا تفارقها ابدا وقد عرفنا من اجابتها بانها شاهدت من خلال التلفزيون منظرا لطفلة مصابة بسبب اعمال العنف والى جانبها مظلة صغيرة ولانها لم تجد في السوق دمية تشبه الطفلة الضحية فانها اجبرت والدها على شراء هذه المظلة لانها تذكرها بالطفلة وهي متعلقة بهذه المظلة وحين تذهب الى النوم تضعها الى جانبها.

يقول والدها هذه مشكلة اعانيها، فقد فوجئت ذات مرة وانا اصاحبها الى السوق لشراء الملابس لها، بانها غير مكترثة بشراء الملابس وكانت في البداية تبحث عن دمية من نوع خاص وكلما عرضت عليها دمية لغرض شرائها لها كانت ترفضها وتقول (موهية) واخيرا وقع نظرها على المظلة السوداء هذه وهي لا تفارقها الا ما ندر وفي بعض الاحيان تكلم المظلة وتقول لها (ماما راح تجي بعد شوية).

ردود الافعال والانعكاسات لمشاهد الخوف والاصوات المدوية تترك اثرا في نفوس الاطفال وقد تكون مفتاحا لظهور نوع من الافعال والعادات او الانفعالات الجديدة التي لم يألفها الاهل عند اطفالهم.

وهذا ليس بالضرورة ان يكون وليدا لهذه الضغوط وانما هو نتاج لسنين وايام النمو وما اكتسبه الطفل من والديه وبيئته المحيطة به وانواع الخبرات المكتسبة.

وعندما اقترنت هذه الخبرات والانفعالات يتبين نوع من السلوك الذي قد يؤدي الى فقدان الثقة بالنفس وظهور المخاوف والاضطراب السلوكي.

حالة نكوص

الطفل علي عبد الله (١٣ سنة) يعاني حالة يسميها المختصون بعلم النفس بـ(النكوص) وهي عملية تقمص شخصية اقل عمرا بكثير من عمر الذي يعاني من هذه الحالة.

يقول والده: تستهويه لعب الاطفال الصغار ويمارس سلوكا طفوليا بحتا داخل المنزل بالرغم من انه في الصف الاول المتوسط فهو يشارك اخاه (احمد ٦ سنوات) نفس العابه ويتودد لامه مثله تماما وقد حاولت اقناعه دائما بأنه اكبر مما يقوم به لكنه يقول لي دائما (أنا مرتاح لهذه الحالة) وبعد تقصي بدايات الحالة تبين بأن علياً قد فقد صديقا عزيزا عليه عندما كانا يلعبان كرة القدم في الشارع وسقط صاروخ في شارع فاستشهد صديقه عماد ونجا هو باعجوبة.

النكوص هو رجوع المرء الى الاساليب التي كان يتبعها في مراحل نموه الاولى للتعبير عن دوافعه الغريزية.

وكان (يونج (Jungاول من تكلم عن النكوص على انه العملية الوحيدة التي يقابل بها الفرد المواقف التي تصل صعوبتها الى حد لا يمكن التغلب عليه ويتوسع (يونج) كثيرا في معنى النكوص فيجعله شاملا لجميع اساليب مقابلة المواقف التي يفشل امامها الانسان.

ويلاحظ ان الكبار انفسهم اذا واجهتهم صعوبات كبيرة فقد يقابلونها بالبكاء او باحلام اليقظة.

واذا شعر الطفل بغيرة شديدة من اخ اصغر منه، فأنه احيانا يعود الى الزحف (الحبو) وعدم القدرة على ضبط نفسه في التبول والتبرز وكثرة الصراخ ومص الاصابع.. الخ.

ويحدث هذا النوع من النكوص عادة في ابناء الامهات اللاتي يعملن لكسب العيش ويؤدي هذا السلوك وظيفة هامة وهي الرجوع الى مرحلة سابقة تستلزم رعاية الام وعدم ابتعادها.

الدفاعات النفسية: من وسائل التكيف مع الظروف والضغوط النفسية وهي من الاليات اللاشعورية في التكيف لتقليل الشعور بالقلق والانفعال قد ينتج عنها تكيف سلبي او ايجابي وهذا يعتمد على الخبرات الشخصية والثقة بالنفس ونوع الظروف الضغوط المسببة.

شهـــــادات اختصـــــاص..... ضيـــــاع الأمـــــل

يقول د/ اسعد الامارة (اكاديمي عراقي وباحث سايكولوجي) : عبر التأريخ القديم والحديث لم تشرك امة ما بعينها أطفالها في الحروب والازمات والكوارث السياسية ، ولم يدون لنا التأريخ ان الأطفال كانوا ادوات في فتح حقول الالغام او حقولاً للتجارب عبر اخضاعهم للتدريب في معسكرات مخصصة لصقل شخصياتهم وتحويلهم إلى جيش احتياطي مساند للقطعات المسلحة ، فماذا تقول الحضارة اليوم لما يجري على ارض العراق تجاه الأطفال ؟

لقد ترك العديد من أطفال العراق مدارسهم بحثا عن لقمة العيش لمساعدة ذويهم في مواجهة شبح الفقر فحل التشرد وضاع الامل والمستقبل ومن استمر منهم في الدراسة حاصرته حوادث السيارات المفخخة والتفجيرات العشوائية وصار مثله الاعلى الذي يحاكي به روحه،كيف يرد الارهاب حين يكبر ويصبح شابا، كيف يشارك في ان يكون ضد الارهاب، وكان كل مايتعلمه في المدرسة من علوم لا علاقة له بالمعرفة التي اكتسبها بقدر ما كان همه الوحيد كيف لايكون ارهابيا فحسب !! او ان يمضي باحثا عن الثأر عمن قتل والده او أخاه او عزيزا عليه... ان تربية القسوة والعنف والعدوان و الارهاب عبر ربع قرن مضى، خلقت لدى أطفال العراق الازمات النفسية والعاهات الجسدية المستديمة وقادتهم من بؤس وتشرد وضياع إلى كوارث انسانية.. هذه حصيلة أطفال العراق من حروب صدام المدمرة إلى التفجيرات والسيارات المفخخة.

كان أطفال العراق وما زالوا يدفعون مستقبلهم ثمنا لحروب صدام ومآسيها، والسؤال المهم هو

❖ كيف هو حال أطفال العراق اليوم؟

امراض نفسية لاحصر لها انحرافات في الشخصية ازمات نفسية متواصلة ضغوط نفسية متواصلة، يتامى من كل نوع، وحسب الدراسات الميدانية فان أطفال العراق يعانون من صدمة مابعد الحرب بشكل مخيف بسبب تزايدعمليات العنف واستمرارها لحد الان. وتقول هذه الدراسات ان مشهد العنف هذا قد اثر بشكل لافت للنظر في سلوك الأطفال مما انعكس هذا على طبيعة العابهم وتصرفاتهم بل وحتى حركاتهم وصارت هذه السلوكيات لاتبتعد عن السلوك العدواني العنفي وبات واضحا ان هؤلاء الأطفال تعودوا السلوكيات العدوانية في اللعب مع زملائهم او في علاقتهم بهم، ملايين الأطفال اليوم فقدوا اباءهم بسبب الحروب وحملات التطهير العرقي والحروب الدالخلية وحملات الجيش الشعبي وجيش القدس هذه الحروب تركت بصمات واضحة في حياة الأطفال الذين نشأ بعضهم لايعرف غير لغة البندقية وانواعها وثقافة المسدس وكيفية حمله والتباهي به، هؤلاء الأطفال لم يعرفوا قط كيف يمسكوا بفرشاة الرسم او اقلام التلوين او حتى التفريق بين نوعية الالوان الزيتية او ورق التلوين والرسم اوحتى تصفح مجلة أطفال،نشأوا واجبروا على الانخراط في الجيش الشعبي ثم اشبال صدام وفدائييه، كيف يا ترى يكون سلوكهم اليوم ؟ هذا هو حالهم بالامس القريب اما اليوم فأن جيل مابعد صدام قد ادمن استنشاق المواد المخدرة وهم يذرعون الشوارع والازقة الطويلة والممتدة شمالا وجنوبا غير مبالين بما يجري، فهم حفاة عراة يرتدون اسمالا ممزقة بالية لاتقي من برد الشتاء ولا حر الصيف فضلا عن ذلك فانهم عرضة لاستغلال عصابات السلب والنهب والاجرام والاغتصاب او اجبار الفتيات على امتهان الدعارة بالقوة، ان ابناء العراق يذهبون إلى المدرسة ويحمل كل منهم روحه الغضة على راحة يده وهو قاب قوسين او ادنى من الموت الذي يتربص به.

وبوضوح يمكن القول ان أطفال العراق جيل ضائع حرموا من طعم الطفولة ومباهجها وبراءتها، وتتوالى الاجيال منذ سلب الطاغية صدام السلطة في العام ١٩٧٩ حتى رحيله واوضاعهم بعد سقوطه اكثر سوءا بسبب الاهمال في معالجة مشاكلهم

كتابة على الحيطان

الطفولة ومستقبل العراق

المحرر

في البرلمان في اروقة الحكومة في برامج الكتل والاحزاب السياسية، ليس هناك غيرهم، البحث عن حلول للمعضلات العراقية الطافية على السطح (الامن، البطالة، الاحتقان الطائفي، توزيع الكراسي، الخ) ان قراءة سريعة لهذه الهموم ستجعلنا نكتشف دون ادنى عناء ان هموم الطفولة العراقية ومعضلاتها ليس فقط في اسفل اهتمامات هذه الفعاليات وانما تكاد تكون جزءا من المشهد التلطيفي للواقع العراقي.

الطفولة هذا المستقبل غير المنظور في رؤى هذه الفعاليات، تتعرض يوميا لاشكال مختلفة من الانتهاكات العنيفة على جميع المستويات، تبدأ من الاهمال الحكومي ولا تنتهي بمشهد العنف العسكري والاعلامي غير المسؤول، ان الحديث عن هذا الاهمال يعتبره البعض ترفا ويراه البعض الاخر لهوا لا طائل من ورائه، فأمام معضلة الارهاب ماذا تعني مشكلة الطفولة؟ وامام تأسيس الدولة العراقية الجديدة ماذا تعني معاناة الطفولة وامام العراق الجديد ماذا تعني فظاعة واقع الطفل العراقي؟.

ان السادة من حملة مثل هذه المفاهيم قد لا يدركون ان التأسيس للمستقبل يبدأ من الحاضر وان أطفال العراق اليوم هم مستقبله وان أطفالا مشوهين بشتى الامراض النفسية لن يكونوا عمادة طبيعية وصحيحة لمستقبل ينشدونه.

كل ما يتعلق بالطفولة العراقية ضائع ومبهم وغير مدرك من قبل قوى بناء العراق الجديد الذي تأسس مع الاسف فوق قاعدة مشوهة حتى في المجال الرياضي يقولون: (خذوهم صغارا) لتأسيس مستقبل رياضي مفعم بالانتصارات والانجازات، فماذا نحن فاعلون امام بناة مستقبل يعانون من كل انواع التشوهات النفسية والجسدية والاحباطات الحياتية اليومية التي تؤثر فعليا وعمليا في تأسيسهم لمستقبل ننشده.

كل الاشياء تبدأ من بواكيرها، فأن كانت هذه البواكير سليمة ومعافاة وهيئ لها جميع اشتراطات صناعتها لمنتج في محيطها فان الحصاد يكون طيبا ومثمرا ومنتجا، وعكس ذلك لن يكون لمستقبل تلك البواكير ما يرتجي منه.

اذن اننا امام بواكير انسانية يؤسس على حصادها مستقبل العراق القادم، اننا حقيقة امام كارثة غير منظورة، بسبب الاهمال الذي يدعو للاستغراب والادلة التي تؤشر هذا الاهمال من قبل الحكومة، لا تحصى ومنظمات المجتمع المدني العتيدة والمهتمة بشؤون الطفولة العراقية ومأساتها تتاجر بها للاسف الشديد، فباسم هذا الطفل المنكوب تلتهم المساعدات العينية والمادية دون ان يشم منها شيئا طفلنا الذي تأتي هذه المساعدات باسمه.

اننا في هذا الملف نلقي الضوء على حافة الصورة الحقيقية لما يجري للطفل العراقي الان وما يعانيه، وحسب التقارير المحلية والدولية فان ما يعانيه الطفل العراقي هو نتاج سياسات تمتد إلى نصف قرن من الزمان، حصد خلالها نتائج سياسات خاطئة في مجالات التربية والتعليم ونتائج الحروب الكارثية التي قادها الطاغية لينتج لنا في النهاية جيلا من غير القادرين على البناء السليم.

اسموهم (طبقة الملوك) و(ملائكة الجنة) و(أمل المستقبل) و(ورود الحدائق) فماذا سنسميهم نحن وماذا سنقدم لهم وكيف سنعالج مشكلاتهم المعقدة؟ اسئلة نطرحها على السادة في مجلس النواب والحكومة العراقية ومنظمات المجتمع المدني فهل من مجيب؟.